دالات المُقَابلة في التعبير القرآني

The corresponding functions in the Islamic expression

الدكتور. خالد حامد العلي

الجامعة العراقية / كلية الإعلام

D.Khaled Hamed Al-Ali
Iraqi University / college of media

أولاً : معنى المقابلة، ووجه المفارقة :

لا جدال في أن أساليب التقابل في التعبير القرآني تجاوزت حدود المعنى باتجاه المبنى، والتفاعل بين الشكل والمضمون أمرٌ مُحقق، فقد أفرز مفهوم التناسب الدلالي للتراكيب اللغوية المتضادة والمتوافقة نسقاً لغوياً تعبيرياً ذا بنيةٍ مستقلة، تكشف عن الأبعاد الدلالية وتحولاتها في إطار الترتيب والتوازي والتماثل اللفظي والمعنوي، لما تنطوي عليه من عناصر فكرية ونقدية لا تقف عند حدود المطابقة ظهوراً وخفاءً، سلباً وإيجاباً، بل تتسع إلى فضاءٍ أرحب حين تتعمق الدلالات المتوافقة بما يقابلها شريطة الترتيب في التقابل فإذا أنعدم هذا الشرط انعدمت المقابلة شكلاً ومضموناً، وبذلك تُشكل المقابلة ((ظاهرة إسلوبية تعتمد الكيفية التي يخرج بها النسق التركيبي في ضوءِ تقابلهِ اللفظي والدلالي، على التضادِ وغيرهِ))[١]، لأن التضاد نوع من التوازن الضروري لاستمرار الكون والكائنات، ومن هنا جاءت فاعلية المقابلة في الأحكام النقدية التقيمية، وتعددت أنماطها وأشكالها في النصوص الأدبية، زيادة على قيمتها الفنية وقدرتها على إثارة الشعور ((عن طريق الإبانةِ الخاطفة عن وجهي الحياة أو الأشياء حيث تتآزر في هذه الإبانة مختلف وسائل التركيب اللغوي))[٢]، وهذا المعنى يؤكد لنا أن بنية التقابل عند علماء البديع ترتكزُ على وجود الحيز الذي يكتنزُ بالمتقابلات، شريطة أن تأتي في صور ذات أبعادٍ دلالية متنوعة، بعيدة عن التكلف والإفراط، مما يُثير نوعاً من الحركةِ الفعلية في السياق التعبيري، لأنها زيادة على ما سبق مؤثرٌ صوتي قائم على الإيقاع ((إذا جاء عفواً بلا تعارض مع الوفاء بالمعنى))[٣]، لأن التوازن الصوتي والتناسب الدلالي يُكسبها عُمقاً، ويزيدها وضوحاً وتأثيراً في النفس، ولا سيّما إذا اتجه البحث في النص القرآني ليلمح أنماطاً تقابلية ذات

---

(١) التقابل الجمالي في النص القرآني – دراسة جمالية فكرية وأسلوبية : ١٤٤.
(٢) فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور : ٤٧١.
(٣) البديع تأصيل وتجديد : ١١٩.

أبعادٍ مكانية وزمانية تتعلقُ بالتناظر والتماثل أو الفواصل القرآنية، لأن ((تقابل المعان باب عظيم يحتاجُ إلى فضل تأملٍ وهو يتصل غالباً بالفواصل))[٤]، ففي الفاصلة يتعاضد المستوى الصوتي مع التقابل الدلالي، بحيث تُصبح المقابلةِ ركيزة أساسية في فاصلة سورةٍ كاملةٍ، على اعتبار أن السورة وحدة دلالية كبرى، تتصف بالترابط العضوي والموضوعي، فلو تأملنا مثلاً سورة الليل من قوله تعالى : **{وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى وَإِنَّ لَنَا لَلآخِرَةَ وَالأُولَى فَأَنْذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّى لا يَصْلاهَا إِلاَّ الأَشْقَى الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى وَمَا لأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى وَلَسَوْفَ يَرْضَى}** (الليل: ١- ٢١).

يُشكل النسق التقابلي في هذه السورة اثنتي عشرة آية، وهو عدد يزيد على نصفِ مجموع آياتِ السورةِ بأكملها، حيث يُحقق التقابل اتصالاً وتآلفاً وانسجاماً ينتجُ عنهُ توافقاً أطلق عليه أحد الباحثين[٥] (توافق المتقابل)، أو (تقابل المتوافق)، فأول نسقٍ تقابلي نلمحهُ في الآيتين الأولى والثانية بين اسمي الزمان (الليل والنهار)، وبين (صيغتي الفعل المضارع (يغشى وتجلى))، فهي من حيث العدد مُقابلة ثنائية أطرفُها متنوعة بين اسمية وفعلية، إلاَّ أنها من حيث المضمون تقابلاً دلالياً لا يستند إلى المعيار الكمي بقدر ما يستند إلى معطيات الأئتلافِ أو الاتفاق والتّضادِ، لأنه تقابلٌ قائمٌ على أساس المعنى الأصيل، ومن ثم نلاحظ النسق التقابلي الثاني المنضوي تحت الصورة ذات اللون الواحد المتقابلة في النوع والخلقةِ في قوله تعالى : **{وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى}** (الليل : ٣) ((فذلك إطارٌ مناسبٌ للصورة التي يضمها))[٦]، ويظلّ الانسجام المتحدد من بنية الإيقاع التقابلي مستمراً حتى يصل إلى مُقابلةٍ ثلاثية الأبعاد ماثلةٍ في قوله تعالى : **{لا يَصْلاهَا إِلاَّ الأَشْقَى الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى}** (الليل : ١٦ – ١٨).

وهنا يُدرك الباحث أن فاعلية المقابلة في النص القرآني تقوم على توزيعٍ مُحكمٍ للأجزاء وفق معايير الدلالة، وإقامة التناسب مع بعضها بدقةٍ متناهية تتناسقُ فيها مع الإيقاع، ففي هذه الآيات تتماثل صورة (الأشقى الذي يصلى النار الكبرى) مع (الأتقى الذي يتجنبها وسوف يرضى) فهي ((صورةُ الأسودِ والأبيض))[٧]، مُشكلةً ما يُطلق عليه بالمقابلة الرباعية في قوله تعالى :

---

[٤] البرهان في علوم القرآن : ٣ / ٤٦٢.
[٥] البديع – دراسة في البنية والدلالة : ٣٩.
[٦] التصوير الفني في القرآن : ١٢٧ – ١٢٨.
[٧] ينظر : التصوير الفني في القرآن : ١٢٧ – ١٢٨.

{فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى} (الليل : ٥- ١٠).

وهذا الشكل الرباعي للمقابلةِ يردُّ مُفسراً حين ينفتحُ الزمن على كل زمانٍ والمكان على كل مكانٍ في (الليل والنهار) و(الآخرة والأولى)، تنبعثُ من هذه الوحدات الدلالة المتجددة، التي يسعى التعبير القرآني إلى استخدامها وفقاً لأسلوبٍ تقني فعّال يُبرز من خلالهِ حركة الأحداث التي تقع في أزمانٍ مختلفة، ((لأن النص القرآني نصٌ زماني في جوهرهِ، ينطلقُ من حادثةٍ زمانية، ليعود إلى جملةٍ زمانية تعبر عن الأحداث التأريخية القديمة))[٨]، ويظهر أثر هذا المعنى واضحاً في معظم سور القرآن الكريم[٩]، حيث تتداخل الحدود الزمانية والمكانية مُشّكِلةً مواقف تحيلُ التقابل إلى صور فنية تعكس البناء الكلي للنص بتمامهِ.

هذا المظهر التقابلي الرباعي الأبعاد، يسعى إلى استشعار الجمال الباطن قبل الظاهر في آياتٍ رُتبت بالتدريج وبالتفريق دلالياً مما أنتج مقابلةً بديعيّة خير من عبرَّ عنها الزركشي بالمقاطع المتقابلة في آخر الفاصلة القرآنية فيها يتعلق السامع ترقباً للمشاهد المتكلملة التي يُدركها العقل الواعي[١٠].

ولا يخفى على الباحث ما للقيمة الفنية الداخلية التي تنبثق عفواً في ((بناء التعبير القرآني موزونةً بميزانٍ شديد الحساسية، تمليهِ أخفُ الحركاتِ والاهتزازتِ))[١١]، ومن هنا يتضحُ أثر المقابلة المعنوي في الكشفِ عن الدلالة التعبيرية بالضدِّ، مرتكزةً على بنية الإيقاعات الموسيقية للأصوات.

وفي ضوء ذلك تعمل بنية التقابل على مستوى تحقيق الناتج الدلالي، لأنه الغاية الأولى التي يسعى إليها علم البديع، زيادةً على توفيرها مساحةً تلاؤمية لتثبيت التوازن النصي الكامن في الإيقاع الداخلي الذي تردُ فيه والمدعوم بتناسقِ حركةِ المعنى وانتظامها، فالتقابل الرباعي في الآيات السابقة حقق تناسباً دلالياً بين الإعطاءِ والإتقاءِ والتصديق والتيسير، وبين البخل والإستغناء والتكذيب والتعسير، ((فإنه لما جعل التيسير مشتركاً بين الإعطاء والاتقاء والتصديق جعل ضده وهو التعسير مشتركاً بين أضدادِ تلك، وهي المنع والاستغناء والتكذيب))[١٢] فاستعمال التيسير يكون لليُسرى ولا يكون للعُسرى، مما يجعل صيغة التيسير الواردة في قوله تعالى : **{فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى}** (الليل : ١٠) ذات دلالة مختلفةٍ عن الأولى الواردة في قوله تعالى :

---

[٨] التقابل الجمالي في النص القرآني – دراسة جمالية فكرية وأسلوبية : ٢٤٦.

[٩] ينظر على سبيل المثال : سورة الجمعة، سورة القيمة، سورة الانشقاق، سورة الفجر، سورة الشمس، سورة الليل، سورة الضُحى، سورة القدر، سورة العصر.

[١٠] ينظر : البرهان في علوم القرآن : ١ / ١٠٠.

[١١] التصوير الفني في القرآن : ١٠٧.

[١٢] الايضاح : ٦ / ٤٨٨.

{فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى} (الليل : ٧)، وخير من فطن إلى هذا النسق في التعبير القرآني وأبرز خصوصيتهُ في الإستعمال الراغب الأصفهاني حتى كأنه بدا من المفردات الفذّة في القرآن الكريم، التي لا تستخدم إلاّ بشكل فريدٍ حين قال : ((فهذا وإن كان قد أعارَه لفظ التيسير فهو على حسب ما قاله الله عز وجلّ : **{فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ}**[١٣]، ذاكراً نظائرها في النظم القرآني وهي اليسيرُ، والميسور، والميسرة، والمَيْسِرُ))[١٤]، لقد أثر فعل التيسير في التعبيرين بدقةٍ متظمةٍ حققت نوعاً من التشاكُل اللفظي، زيادةً على البنيةِ النسقية الرباعية الأركان، التي لا يقدر على الإتيان بمثلها إلاّ المبدع الأعظم جَلَّ شانهُ، وقد عبرت الدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)، عن الصيغتين، ووصفت نظيرهما في القرآن الكريم من غير المادة، ((إن إستعمال العُسرى، كإستعمال اليُسرى، ليس ملحوظاً فيه المصدرية، كالعُسرِ واليُسرِ، وإنما المُلحظ فيهما بصيغة الفُعلى، أقصى اليُسر وأشدُّ العُسر، أو هما اليُسر الذي لا يُسرَ مثلهُ، والعُسر الذي ما بعدهُ عُسر))[١٥]، أما نظيرهما في التعبير القرآني فهي صيغُ البطشة الكبرى، والنار الكبرى، فإستعمال التيسير مع العُسرى، مبالغةً في الوعيدِ والتهديد لمن بخل واستغنى بشهوات الدنيا عن نعيم الجنة[١٦].

ويبرز الأثر الإيقاعي أي : إيقاع المعنى، بالالتحام والتناسب مع الأثر الدلالي، ليُؤلف إيقاعاً مركباً ((يختلف عن إيقاع السجع والجناس في بساطتهما ومباشرتهما، حيث نُجَابِهُ من خلالِ المقابلةِ طابع المفارقة، على نحوٍ سميحٌ لنا بتصور الاختلاف بين التطريب الأدبي، وتوليد المتآلفِ من المتعارض، والمنسجم من المتقابل))[١٧].

وبما أننا في صددِ ذكر المفارقة، فلابُد من وقفةٍ قصيرةٍ نستكشفُ فيها علاقة هذه الظاهرة الأسلوبية يعني (المفارقة) بظاهرة (المقابلة) وفاعليتها في السياق الذي ترد فيه.

إنّ المفارقةُ في أدقِّ وصفٍ لها : بنية أسلوبية فاعلة في إثراء البناء الدلالي للنص، تعتمدُ أساساً على المتناقضاتِ، بغية تحقيق أهدافٍ فكرية وفنية، فهي بذلك شكلٌ من أشكالِ المقابلةِ ثنائي الدلالة، وصيغة تعبيرية ترمي إلى معنىً آخر يحددهُ الموقف، فيخلقُ نوعاً من التضادِ بين المعنى المباشر للمنطوق، والمعنى غير المباشر، ولذا يُقال عنها إنها توازن الأضداد أو بلاغةُ الأضداد[١٨].

---

[١٣] المُفردات في غريب القرآن : ٥٥٣.
[١٤] ينظر : المُفردات في غريب القرآن : ٥٥٣.
[١٥] التفسير البياني للقرآن الكريم : ٢ / ١٠٩.
[١٦] ينظر : المكان نفسه.
[١٧] البديع – دراسة في البنية والدلالة : ٤٠.
[١٨] ينظر : البديع – دراسة في البنية والدلالة : ٥٩.

وعلى الرغم من إرتكاز أسلوب المفارقةِ على التناقضات، فإن ذلك لا ينفي التماثل والاتفاق بين أطرفها فـ ((عن طريق وضع كل طرفٍ بكل عناصرهِ ومقوماتهِ في مواجهةِ الطرف الآخر، ومن خلال مقابلةِ الطرفين تحدث المفارقة ويبرز التناقض بينهما))[١٩]، وهذا يستدعي ضرورة معرفة أهم عناصرها التعبيرية ويمكننا ذلك من خلال الوقوف على شاهد قرآني يكشف عن وجوه المفارقة القرآنية في أدق حالاتها، قال تعالى : **{وَإِذَا مَسَّ الْأِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}** (يونس:١٢).

جاءت هذه الآية في سياق إبراز المفارقةِ بين حالين من أحوال الإنسان المتغيرة، حين يرصدُ التعبير القرآني السلوك البشري ويرقب حركاتهِ وسكناتهِ في جوانب كثيرة، يصور فيها بدقةٍ وبلاغةٍ معجزةٍ هذه السلوكيات والأحوال، مُخطاباً العقل والقلب، ليبلُغ في ذلك الغاية الفنية والدينية المؤثرة والمطلوبة.

فالمستوى الظاهر في التعبير القرآني يكشفُ لنا عن صورة من صور المقابلةِ التصويرية بين حال مسّ الضُرّ بالإنسان، وبين حال كشفهِ عنهُ.

ففي الحالة الأولى يتوجه الإنسان بالدعاءِ إلى الله تعالى متوسلاً متضرعاً طالباً كشف الضُرِّ عنه، وفي كُلّ أحوالهِ في القيام والعقودِ أو الاضطراب بين الحالين، كأن يكون منبطحاً عاجز النهض[٢٠].

ويظهر اقتران المسّ بالضرّ، فكل شيء يمس الإنسان يؤثر حركةً سلباً أو إيجاباً، لأن المسَّ حقيقتهُ مسكُ الشيء باليدِ فهو استعارة المحسوس للمحسوس[٢١]، وضرر المسِّ هُنا هو القلقُ والاضطراب والخوف الذي يحسهُ الإنسان أثر ما يجري على البدن من مرضٍ وهزالٍ وشدةٍ في العيش أو سوءِ حالٍ[٢٢]، وكل ما يؤلم ويُحيط بالإنسان حتى كأنه في غلافٍ كثيفٍ لا يرى من خلالهِ أي شيءٍ، فالضرُّ هنا اسمٌ جامعٌ لكُلِّ ما يُصيب البدن، بخلافِ الضّرُّ – بفتح الضاد – فهو أسمٌ عامٌ في الضرر في كُلِّ شيءٍ، خلافُ النفع[٢٣]، وقد ادت مغايرة الحركةِ هُنا دلالة العُلو والقهر، التي تُشعر بها قوة الضمّة، في حين تُشعر خفة الفتحة، ((بأخفِ الحالين وهو الضَرُّ المضادُّ للنفع، أما القهر الذي في الضُرّ، فلأنه صادر عن غير المخلوقين، وليس لمخلوق سبيل إليه))[٢٤] **{فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ}**، وهنا تبدأ الحركة الثانية بإزالة المؤثر الخارجي الناجم عن المسِّ، وهو الحجاب الحسي الخفي، كقوله تعالى : **{لَقَدْ**

---

[١٩] المصدر نفسه : ٦٢.
[٢٠] ينظر : الكشاف : ٢ / ٣٥١.
[٢١] ينظر : لسان العرب : ٦ / ٢١٨.
[٢٢] ينظر : تاج العروس : ٣ / ٣٤٨، الصحاح : ٢ / ٧٢٠.
[٢٣] ينظر : دقائق الفروق اللغوية في البيان القرآني : ٣٠٤.
[٢٤] المصدر نفسه : ٣٠٥.

كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ} (ق:٢٢)، وهذه الحركة التقابلية ذات دلالات إيحائية شاخصة للبصر، فهي تصورّ حالة الجحود والإعراض والغفلةِ ونكران النعمةِ التي تأتي مُقابلةً لحالةِ التضرع والتذكر والتوسل والدعاءِ المستمر، وقد عَبَرَ عنها القرآن الكريم في موضع آخر في قوله تعالى : **{وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإنسان أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ}** (فصلت:٥١).

تتجسدُ في الأسلوب التقابلي هنا حالةُ النعمةِ وما يرافقُها من نسيان مُعطيها، والكفر بحقها، والإعراض عن شكرها، وحالةُ النقمةِ وما يرفقُها من دعاءٍ ذو عرضٍ وطولٍ، وتضرعٍ بكلِ الأحوالِ طلباً لكشفها والخلاص منها، ((وقد جاء التحولُ عن تعريفِ الضُرِّ إلى تنكيره في الآية مؤدياً دورهُ في تجسيد تلك المفارقة))[٢٥] لتأدية التعريف دلالة الإشعار بعظمة الأمر، وإن هان هان أو قلَّ خطرهُ، في حين أوحت دلالة التنكير في الضرُّ ((بأنه ما أن يَكشف الله عز وجل ضُرّ الإنسان حتى يتوارى ذلك الضرُّ بعيداً عن محور اهتمامه، ويؤرة شعورهِ، ويصبح في هامش ذكراه أقرب إلى المجهول))[٢٦] وهذا أدعى لظهور المقابلةِ في الآيةِ على المستوى السطحي الظاهر للمعنى، لأن المفارقة تكمنُ في المستوى العميق والمعنى الكافي الخفي الذي لم يُعبر عنه صراحةً، مما يُحرك الذهن للكشفِ عنهُ ويعزز دور دلالة المفارقة المقصودة منهُ، ويقوي مهمتها بكل فعالية في سياق التشكيل التقابلي.

تمثل دلالة (الإسراف) في خاتمة الآية في قوله تعالى : **{كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}** جانب المفارقة القرآنية، والذي مُهد لها بذكر حالتي الشدة والرخاء، أو النقمةِ والنعمةِ المنطوية على معنى المبالغة في عرضِ الصورةِ، فمقتضى السياق يؤكد معنى قوله (كذلك)، أي ((بمثلِ هذه الطبيعة، طبيعة التذكر فقط عن الضُر، حتى إذا أرتفع انطلق ومرّ، بمثل هذه الطبيعة أستمر المسرفون في إسرافهم))[٢٧]، فجاءت لفظة (المسرفين) مُفارقة معنوية مُناسبة لتعلقها بالسياق القرآني في عرضِ النموذج البشري المبالغ المُسرف في صورة إصابة الضُرّ متقلباً، راجباً متوسلاً، وصورة كشفهِ عنه منطلقاً، مسرعاً، متعالياً، وهذا كلّه منسجماً مع الحالة النفسية التي عبر بها النظم القرآني، فشكلت المفارقة أداةً أسلوبيةً فعّالة كشفت عن وجهٍ من وجوه التناسب الدلالي بين المتناقضات لفظاً ومعنى، وأرخت الستار عن كثيرٍ من مكنونات التعبير عن المعنى بما أدوعتهُ من خفايا دلالية يتطلبها السياق ويستدعيها المقام.

---

[٢٥] أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية : ١٤٤.
[٢٦] أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية : ١٤٤.
[٢٧] في ظلال القرآن : مج ٣، ج ١١، ص ١٧٦.

ومثل ما قيل في هذه الآية يقال ولا يزاد في قوله تعالى : **{وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى}** (طه : ١٢٧).

ثانياً : التقابل بالتمكين أو الملاءمة / مُفارقة الموقف.

قال تعالى على لسان قوم شعيب : **{قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ}** (هود:٨٧).

تستوقفنا بلاغياً خاتمة الآية، لأنها تشكل موضع المفارقة القرآنية في قوله تعالى : **{إِنَّكَ لأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ}**، وتطرح أمامنا التساؤل الآتي : ما السرّ البلاغي في إيثار صفتي الحلم والرُّشد المؤكدين في موضع التهكم والإنكار الموجه بأسلوبِ الخطاب المباشر من أهل مدين لنبيهم شعيب – عليه السلام -؟ وما وجه المفارقة في ذلك ؟.

لقد أجاب أحد المفسرين عند هذا التساؤل بقولهِ : ((فإنه لما تقدم ذكرُ العبارةِ والتصرفِ في الأموال، كان ذلك تمهيداً تاماً لذكرِ الحلم والرشد، لأن الحلم الذي يصحّ به التكليف، والرشد حُسن التصرف في الأموال))[٢٨]، مما يؤكد أن الآية سبقت منذُ بدئها وارتباطاً مع ما سبقتها للنهي أولاً عن القبح وهو النقصان في المكيال والميزان بقوله تعالى : **{وَلا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ}**، ثم ورد الأمر بالإيفاءِ الذي صُرح بلفظهِ لزيادة الترغيب فيه، وجيء به مُقيداً بالقسطِ في قوله تعالى : **{وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ}** (هود:٨٥).

والبخسُ هو الهضمُ والنقصُ[٢٩]، أي لا تنقصوا من أثمانِ ما تشترون، ثم اتبع ذلك بمعنىً يتآلف مع النظمِ السابقِ في قوله تعالى : **{وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ}**، فقد جعل التطفيفُ والبخسُ في الأثمانِ عبثاً فهم في الأرض[٣٠]، وممكن المفارقة في أن لفظ الحلم جاء في موضعٍ مناسبٍ لأمر التكليف، لأن مقتضى السياق يتطلب قوله : (أصلواتك تأمرك بتكليفِ أن نترك ما يعبدُ أباؤنا) فحُذف المضاف الذي هو التكليف، لأن الإنسان لا يؤمر بفعل غيرهِ، في حين جيء بلفظِ الرُشدِ صفةً لشعيب – عليه السلام - ، ملاءمة بما سبق ذكرهُ من حُسن التصرفِ في الأموال، ((فكان آخر الآية مُناسباً لأولها مناسبةً معنوية، يُطلق عليها بعضهم الملاءمة))[٣١].

وتكشف هذه الآية عن مستويين للمعنى :

---

[٢٨] البرهان في علوم القرآن : ١ / ٨٠.
[٢٩] ينظر : الكشاف : ٢ / ٤٢٢.
[٣٠] ينظر : المصدر نفسه : ٢ / ٤٢٣.
[٣١] الاتقان في علوم القرآن : ٣ / ٣٠٢.

أحدهما : ظاهرٌ سطحي، يبرز في أسلوب التهكم المختوم بصفتي الحليم والرشيد.

ثانيهما : باطنٌ خفي، في عدم إرادة معنى الحلم والرشد صراحةً بل المقصود هو التعريض، والنقيض أي أرادوا نسبة السفه والغيّ تهكماً وسخريةً بنبي الله شعيب – عليه السلام – وإنكارهم ما أمرهم بهِ، فالمعنى الظاهر هو رفعهم من شأن شعيب إلاّ أن الخفاء يتمثل في نقيض ذلك ضمناً كما أرادوا، فجاءت المفارقة في الآية أداةً لإظهار المعنى بمستويين متناقضين.

ومن الواضح في الآيةِ الكريمةِ أنها ((مهدت لكلمتي الحليم والرشيد تمهيداً دقيقاً، فجاءتا في موضعهما المناسب، وتعلق معناهما بما قبلهما تعلقاً تاماً، وهو ما يُطلق عليه في البلاغةِ التمكين))[٣٢]، أو بعبارة أخرى إن الفاصلة جاءت مؤتلفة مع دلالة السياق العام وهو ما يسمى بـ (الملاءمة)[٣٣].

يتبينُ من خلالِ سوق هذه الأدلة القرآنية أن المفارقة آليةٌ فنية وممارسةٌ تقابلية تبرز التناقض أو التعارض بين طرفين متقابلين، يمثلان في الأصل طرفي المفارقة، ويقوم المتلقي بدور بارز في تفعيلها بالبحثِ عن أدلتها الخفية وما تؤديهِ من دورٍ في تقوية التفاعل التقابلي الدلالي للنص، فهي حلقةٌ في نسقٍ بنائي أساسي متكامل تصبح المعاني فيها مجردات اعتبارية يدركها العقل الواعي، وبذا تتخذ المفارقة شكلاً من أشكال التقابل بما توقظه في النفس من دلالات عميقة توازي بذلك مفهوم التقابل على جهة التناقض أو التعارض.

وإذا ما عُدنا إلى مفهوم التقابل، وجب علينا التأكيدُ على أنه ليسَ بالضرورةِ مجيء طرفي المعادلة التقابلية في أي سياقٍ، متعاقبين، بل قد يتباعدان، شريطة الترتيبِ ((وقد يصل التباعد إلى حدِّ مجيء طرفٍ في صدر النص، والآخر في عجز النص))[٣٤]، وهذا ما يُطالعنا كثيراً في فواتح السور القرآنية المتقابلة مع خواتيمها، من ذلك قولهُ تعالى في مَطلع سورة المؤمنين : **{قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ}** (المؤمنون:١)، التي أشار فيها التعبير القرآني إلى إثبات المتوقع وهو بشارة الفلاح والظفر وبالمرادِ[٣٥]، مُقابلةً بالتعبير الدلالي الواردِ في خاتمةِ السورةِ في قولهِ تعالى : **{إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ}**(المؤمنون: من الآية١١٧)، ((فشتان ما بين الفاتحة والخاتمة)) [٣٦].

---

[٣٢] التمكين : هو أن يمهد قبلها، تمهيداً تأتي به الفاصلة ممكنَّة في مكانها، مستقرة في قرارها، مطمئنة في موضعها، غير نافذة ولا قلقة، متعلقاً معناها بمعنى الكلام كُلّه تعلقاً تاماً، بحيث لو طُرحت أختل المعنى واضطرب الفهم، البرهان في علوم القرآن : ١ / ٧٩.

[٣٣] ينظر : المصدر نفسه : ١ / ٨٠.

[٣٤] ينظر : الكشاف : ٣ / ٢٤٠.

[٣٥] المكان نفسه : ٣ / ٢٤٠.

[٣٦] المكان نفسه : ٣ / ٢٦٦.

أو ما نراهُ واضحاً في مُقابلةِ سورةٍ بأكملها مع السورةِ التي تسبقها أو التي تليها، تقابلاً دلالياً يُسهم في تأكيد المعنى وإبرازهِ بصورة أقوى وأدق، كما في قوله تعالى : **{أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ وَلا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُونَ الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ}** (الماعون: ١ - ٧).

تقعُ هذه السورةِ ضمن الإطار التقابلي للسورةِ التي تليها، وهي سورة الكوثر من قوله تعالى : **{إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ}** (الكوثر: ١- ٣).

وفكرة التقابل فيها قائمٌ على ذكرِ أوصافٍ متقابلةٍ متعددة تظهر في سورة الماعون في وصفٍ للمنافقِ بأمورٍ أربعةٍ : البخل، وترك الصلاة، والرياءِ ومنع الزكاة، جاء في مُقابلها أموراً أربعة أيضاً في سورة الكوثر : العطاء أي : الكثير، ضد البخل، والصلاة ضد تركها، في قوله تعالى : **{فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ}** (الكوثر : ٢) أي : دُمْ عليها، أو في مُقابل الرياء فقد جاء قوله تعالى : (لربك)، أي : لرضاه لا للناس، وشكلت المقابلة الرابعة الطرف الأخير لهذه المعادلة، تمثلت بقولهِ تعالى في سورة الكوثر : (وأنحر) فهي مخالفة لمنع الماعون (الزكاة)، وأراد بها أي لفظ (أنحر) التصدق بلحم الأضاحي، وهذهِ من أعظم المناسبات وأدقها[٣٧].

ولا يفوتنا في هذا المقام من ضرورة الإشارة إلى اقتراب مفهوم المقابلة من مفهوم المطابقةِ في تقديم الفكرة العامة من خلالِ توزيع المتضاداتِ، وهذا لا يعني أنَ المقابلة هي المطابقة، فالصلةُ وثيقةٌ بينهملا حتى عدّها بعض علماء البلاغةِ لوناً من ألوان الطباق، بل هي أي (المقابلة) أشملُ وأعمّ، ونحن نؤيد رأي جمهور البلاغيين في استقلالية المقابلة وخصوصيتها عن الطباق، لأن مجرّد وضع الحدود الفارقة بين المفهومين يؤكد اهتمام كبار علماء البلاغة، والقدماء منهم على وجه الخصوص، بأمورٍ شكلية تبعدهم قدر المستطاع عن جوهر هذه المظاهرِ وذاتيتها، وقيمتها التعبيرية وتوجه أنظارهم إلى التفريع والتنويع في اللونِ البلاغي الواحدِ مما يُكسب دراساتهم صفة التنظير لا التطبيق، وقد حصروا أوجه المفارقةِ بين المفهومين في أمرين اثنين:

أولهما : إنَّ الطباق يرتكزُ غلى فكرةِ ثنائية الجمع بين متضادين في معنى واحد، في حين أن المقابلة تأتي بالجمع – غالباً – بين أربعةِ أضدادٍ، بناءً على عدد المعاني المتقابلة، وقد صَرَّح علماء البديع بأن المقابلات قد يَصلُ إلى الجمع بين عشرةِ أضدادٍ، فكلما كثرت المتقابلات في الكلام كان أبلغ[٣٨]، ولنا في هذه الزاوية وجهةُ نظرٍ قد تكون مخالفة، إذ أننا لم نجد في

---

[٣٧] ينظر : البرهان في علوم القرآن : ١ / ٣٩، وينظر : المبحث - من هذا الفصل :

[٣٨] خزانة الأدب : ١ / ١٣١.

القرآن الكريم مُقابلةً تجاوزت الأبعادَ الأربعة، وبذلك ينطبق قول علماء البديع على النصوص الأدبية، لذا يستلزم تصريحهم الدقة العلمية، وبما أن معيار الجودة في الكلام نوعي وليس كميّاً، لذا فمخالفته تخرج القول من حدود المعقول إلى المتكلف الذي تأباه الفطرة والذوق السليم، ولذا أُخذت على بعض الشعراء مآخذ نقدية، بكثرةِ مبالغاتهم في المقابلة وتجاوزهم الحُسن المطلوب والتأثير المقبول[٣٩].

وبناءً على ذلكِ يمكننا القول بأن ((المقابلة البليغة تؤثر في الأسلوبِ شكلاً ومضموناً، ففي الشكل يوجدُ نمطاً من التوازن والتناسب لهُ حسنه وبهاؤه، فالألفاظ متجانسة، والجمل متوازنة، والتقابل بينهما يُحدث أثراً صوتياً لهُ قيمتهُ في وقع الأسلوب))[٤٠]، أما من ناحية المضمون فالمعنى الواضح يُظهر ترابطاً واتساقاً يذكر الشيء ومقابلهِ، فهي من هذه الناحية تقترب من المطابقةِ، بفارقٍ تركيبي يُحدد قيام المقابلةِ على الجُملِ وبناءها على المواجهة بين أكثر من معنى، مما يُضيف لها خصوصية تفتقر لها المطابقة[٤١].

ثانيهما : أن الطباق يقعُ بين الأضداد حصراً، في حين لا يشترط في المقابلة ذلك، فقد تقع بالأضدادِ وبغيرها، وبالأضدادِ تكون أعلى رتُبة وأعظم موقعاً[٤٢]، زيادةً على أن الطباق يحصلُ فيه التوافق بعد التنافي، والعكسُ ما يحصل في المقابلةِ، وفي كليهما يورد المعنى بطريقةٍ خاصةٍ، إلاّ أن استلزام أحدهما للآخرِ لا يعني الدخول فيه، فكل واحدٍ منها مَظْهرٌ بذاتهِ، مُستقلٌ عن الآخر.

ذلك ما ذكرهُ العلماء من تقعيدٍ وتصنيفٍ لهذا الفن البديعي (المقابلة) فهو كثير الورود في القرآن الكريم، إذ لم يكن أكثر فنون البديع نظماً فيه، فالقرآن يورد الإيمان والكفر في سياقٍ واحدٍ، والظلمات والنور، والنفع والضرّ، والجنة والنار، والحياة والموت، والسماء والأرض، والرشد والغي، إلى غير ذلك من المعاني المتقابلة، مما يجعلنا نؤكد أن أسلوب التقابل فيه أصيلاً يقتضيه المقام بعيداً عن التكلف والترف في الأسلوب.

---

[٣٩] منه قول أبي دُلامة : ما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا وأقبحَ الكفر واللإلاسَ بالرجلِ
وقد رُجح قول المتنبي على قول أبي دلامة في موازنة أوردها الخطيب القزويني والمعيارُ (كثرة المقابلة) مع (سهولة النظم) و(التمكن من القافية) عند المتنبي، خلافاً لبيت أبي دلامة الذي استدعى فيه القافية استدعاءً، وإن ما ذكره غير مختص بالرجل فقط، لذا جاء بيت المتنبي حاسماً للموازنة النقدية بين الشاعرين حين يقول :
أوزرهم وسوادُ الليلَ يشفع لي وأنثني وبياضُ الصبحُ يُغري بي
وقد أثني عليه كثير من النقاد، كما عُدّ أفضل بيت في المقابلة، الإيضاح : ٦ / ١٨، والمصباح : ١٩٠. وديوان المتنبي : ١٠٤/١.

[٤٠] دراسات منهجية في علم البديع : ٦٧.

[٤١] ينظر : المكان نفسه.

[٤٢] ينظر : بديع القرآن : ٣١.

ثالثاً : أشكالُ التقابل وآلياّته :

فَرضَ الدرس البلاغي نسقاً مألوفاً في تقسيم صور التقابل، والوقوفِ على نماذجهِ المتكررة، وفي هذا الموضع من بحثنا نتجاوز نسق البناء العددي في التقسيم إلى متقابلات ثنائية وثلاثية ورباعية، إلى تقسيم جديد يبدعنا قدر المستطاع عن الدخول في تفريعاتٍ لا طائل من ورائها، ويقتضي هذا التقسيم الوقوف على عيناتٍ أظهرُ من سابقاتها تكشفُ عن التعالق بين المعنى والمبنى في روائعٍ من متقابلات القرآن الكريم، والتي تثري البنية الدلالية فيه :

١) التقابل عبر توازي الأفعال :

قال تعالى : **{لِكَيْلا تَأسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ}**(الحديد: من الآية٢٣).

نلحظ طرفي التقابل في معادلِ توازي الأفعال، (لا تأسوا على ما فاتكم) يعقبها مباشرةً (لا تفرحوا بما آتاكم)، على الترتيب في الحركة الفعلية حيث توزعت الأنساق التعبيرية في مواجهة المقابل لها على سبيل إظهار التعارض والتناقض تاركةً أثرها، فالأسى يُقابلهُ الفرح، والفوت أو الذهاب يُقابلهُ دلالة المجيء والإتيان، والمراد بالفرح هُنا المطغُي المُلهي عن الشكر، أم دلالة الحزنُ فهم المخرجُ إلى ما يُذهِلُ صاحبه عن الصد والتسليم لأمرِ اللهِ ورجاءِ ثواب الصابرين[٤٣]، ((يعني أنكم إذا علمتم أن كل شيء مُقدرٌ مكتوبٌ عند اللهِ قَلَّ أساكم على الفائت وفرحكم على الآتي))[٤٤]، وقد أسهم نسق التقابل عبر توازي الأفعال المنفية في إبراز الدلالة الجامعة للمفرداتِ المتقابلةِ مما يُظهر قيمتها في السياق وتفاعلها مع بقية مكونات البنية لإثراء النتاج الدلالي وتوسيع مساحتهِ.

تأمل قوله تعالى : **{قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الأوَّلِينَ}** (الأنفال:٣٨).

من المعلوم أن الكفار المتأخرين سلكوا في كفرهم وتكذيبهم مسلك من كان قبلهم، وهم كفار مكة، الذين أخبرَ الله تعالى في قوله مخاطباً نبيه (صلى الله عليه وسلم) : **{وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ}** (فاطر:٢٥).

---

[٤٣] ينظر : الكشاف : ٤ / ٣٤٨.

[٤٤] ينظر : المكان نفسه.

وكما حكى الله تعالى عن الفئة الضالة من الأمم السابقة قولهم لرسلهم : **{لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ}**(ابراهيم: من الآية١٣).

وأخبر عنهم في موضع آخر في قوله تعالى : **{وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذاً لا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً}** (الإسراء:٧٦) .

الجملة الفعلية المتقابلة بالتوازي جُملة شرطية، أحدث فيها حرفُ الشرطِ (ان) وما بعده من صيغة المضارع المتصل بالفاعل (الواو) أثراً دلالياً في الصيغة الزمنية للفعل، فقد ((جاءت فيها (أن يفعل) دالة على الاستقبال))[٤٥] مؤدية بذلك وظيفتها النحوية يتعاقب جواب الشرط بعدها مباشرة (يُغفر لهم) أي : إن ينتهوا ((عما هم عليهِ من عداوة الرسول – صلى الله عليه وسلم – وقتالهِ بالدخول في الإسلام))[٤٦] يُغفر لهم ما أسلفوه من ذنوبٍ وآثامٍ، ((وجرى هذا الكلام على عادةِ القرآن في تعقيب الترهيب بالترغيب، والوعيد بالوعد، والعكس، فأنذرهم بما أنذر، وتوعدهم بما توعد ثم ذكّرهم بأنهم متمكنون من التدارك وإصلاح ما أفسدوا))[٤٧]

أما في الجملة الشرطية الثانية **{وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ}**، فقد استند الفعل (يعودوا) بالقول إلى ضمير الغائبين[٤٨]، أي : أن يعودوا بالارتداد إلى الكفر فقد مضت سُنة اللهِ تعالى بإهلاك الكفرة[٤٩]، وقد شكلت المتوالية الثانية توازياً مبنياً على أساس التقابل بين صيغتي (إن ينتهوا) و(إن يعودوا) فلكل منهما دلالتهُ، لأن في قوله تعالى : **{وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الأَوَّلِينَ}**، إخبارٌ بالتعريض والوعيد بأنهم سيلقون ما لقيهُ الأولون والقرنيةُ الدالة على ذلك، ظاهر الإخبار بمضي سنة الأولين، وهو من الأخبار بشيءٍ معلوم للمخبرين بهِ، وعلى أسا ذلك جاء تأكيده بـ (قد)، فوقع جزاءً للشرطِ، ولولا ذلك لما كان بين الشرط وجوابهِ ملازمة في شيء[٥٠].

إن التعالق الشرطي بين هذهِ المتواليات أدى دلالة نحوية من حيث الموقع التقابلي، فوقعت جملة (إن ينتهوا يُغفر لهم ما قد سلف) في محل نصب مقول القول، في حين وقعت الجملة الشرطية الثانية في محل نصب عطف

---

[٤٥] الزمن في القرآن الكريم : ٢٦٤.
[٤٦] الكشاف : ٢ / ٢٥٦.
[٤٧] تفسير التحرير والتنوير : ٩ / ٣٤٤.
[٤٨] ينظر : المكان نفسه.
[٤٩] ينظر : الكشاف : ٢ / ٢٥٦.
[٥٠] ينظر : التحرير والتنوير : ٩ / ٣٤٦.

على الجملة الشرطية الأولى، فقد كان للتوازي أثرٌ دلاليٌّ في تحديد مصير الذين كفروا، فإما الانتهاء ليجب ما قبلهُ من آثار، وأما العودة إلى ما نهوا عنهُ، وبذلك فإن سُنة الذين من قبلهم ممن تحزّبوا على أنبيائهم من الأمم الأولى، فدُمروا، ماضيةٌ فيهم مؤكدة حتمية لا جدال فيها وهي قانون إلهي عادل مُطرد في جميع القرآن، ومما زاد في تأكيد هذا الأثر الدلالي توالي المتقابلتين الشرطيتين بشكلٍ متوازٍ وفي أنساقٍ متظمةٍ ساعدت في ترابط النص ووحدتهِ، وإظهار الأبعاد النفسية وتصويرها في أدقِ حالاتها، فالصورة القائمة على الحركةِ بين المتضاداتِ ذات بُعدٍ سطحي وعمقٍ داخلي كما في قوله تعالى : **{فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقاً}**(الكهف: من الآية١٦)، فدلالة (الكهفِ) دلالةٌ مكانية ذات بُعدٍ نفسي يوحي بالضيق، يُقابله في السعةِ (الرحمة) التي تعمُّ المكان وتنشرُ فيهِ الأمان والطمأنينةِ.

وقولهُ تعالى : **{إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَى وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَى}** (طـه: ١١٨ - ١١٩).

ظاهرُ السياق يقتضي مُقابلة الجوع بالظمأ، والعُري بالضُحى، إلاَّ أنه عَدَلَ عن مقتضى الظاهر إلى إجراءٍ يكشفُ عن مُقابلةٍ في أعلى مراتبِ الإعجازِ والفصاحة بين الجوع والعرى، والظمأ والضُحى، ((لأن الجوعَ ألم الباطنِ والضُحى موجبٌ لحرارة الظاهر، تقابل احتراقاً باحتراق، كما قابل الخلو بالخلو في العري والظمأ، فاقتضت الآية نفي جميع الآفات ظاهراً وباطناً))[٥١]، ((فالشبع والرّيُ والكسوة والسكن هي الأقطاب التي يدورُ عليها كفاف الإنسان فذكرهُ استجماعَها لهُ في الجنةِ))[٥٢]، أما ورودِ صيغ هذه الأفعال منفية، ((ليطرق سَمعهُ بأسامي أصناف الشقوةِ التي حذرهُ منها، حتى يتحامى السبب الموقع فيها كراهةً لها))[٥٣]، ومن هُنا نلحظ أن توازي الجمل الفعلية قائمٌ على البنية التركيبية النحوية الدالة على الزمن المضارع تأكيداً على دلالة التداخل والتي يُمكن تفصيلها بالمخطط الآتي :

التركيب الأول ⟵ تجوع ← تعرى

التركيب المتداخل تجوع ← تظمأ

---

[٥١] فن البديع : ٥٢.

[٥٢] الكشاف : ٣ / ١٧٠.

[٥٣] المكان نفسه.

فالحركة المعاكسة تشير في التركيب المتداخل إلى موضع التغاير بين الأطرافِ، والذي كان يُحتمهُ السياق الدلالي، وقد سُبقت تلك المتواليات بـ (أن + ضمير الفعل) زيادةً في التوكيد على التذكير بهذه الأمور واجتماعها للرسول (صلى الله عليه وسلم) في الجنةِ.

تأمل قولهُ تعالى : **{الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ}** (التوبة:٦٧).

في موضعٍ آخرٍ من السورةِ نفسها قال تعالى : **{وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}** (التوبة:٧١).

يقوم هذا النوع من التوازي التقابلي على تكرارِ الصورة النحوية مستنداً إلى الدلالة تبعاً لمواقع الوحدات اللغوية فيها، وقد أستعان التوازي في تعزيز دور المقابلةِ بظاهرة التكرار، تقوية للمعنى وإبرازاً للصورة.

فشكل بذلك منعطفاً معنوياً للتوازي، من خلالِ مُعطياتهِ التنويعيةِ الدلالية، والتركيز على وجودِ علاقاتٍ ترابطية بين المتواليات التقابلية فقد أظهر التعبيران أكثر من نوعٍ للتوازي منها ما هو إسمي ومنها ما هو فعلي ومنها ما هو حرفي ومنها ما هو تصويري بـ (الحدث)، ولكل واحدٍ من هذه الأنواع تشكيلاته الأسلوبية التي تُكسب السياق القرآني إيقاعاً ودلالة خاصة، إذا ما عملت منفردة، وباجتماعها تتظافر بنية ونحواً لتشكل الملامح البارزة والمتأصلة في مفهوم التوازي التقابلي، فالتعبير القرآني الأول أوجز لنا صفات المنافقين، فأعطى بذلك تعريفاً شاملاً عن طبيعتهم، تكوينهم، سلوكهم، مختزلاً ما فصلته سورة التوبة في أكثر من نيفٍ وسبعين آيةٍ لصفات المنافقين[٥٤]، وليس غريباً على المنافق أن يعكس حقائق الأشياء بتزيفها وفقاً لأهوائهِ، فهو من يأمر بالمنكر، وينهى عن المعروف، ويقبضُ يديهِ شُحاً وبخلاً وينسى الله تعالى، في جميع لإعالهِ وأقوالهِ، والمراد بالنسيان هُنا هو غيابُ خوف اللهِ في شعور المنافق مما يؤدي إلى تصلده على النفاق، ومناصرة الباطل[٥٥]، حتى

[٥٤] ينظر : تجليات الدلالة الإيحائية في الخطاب القرآني : ٢٨٢.
[٥٥] ينظر : المكان نفسه.

يؤول به الأمر إلى : ((الشرك، الترك، الإهمال، والإعراض عن الامتثال لأوامر الله))[٥٦].

في حين أن ما يُقابل هذا التعبير، هو النقيض والضدّ والانعكاسُ الصريح المتمثلِ بأوصافِ المؤمنين في أروع تكشفٍ دلالي شمولي يحدد بإيجازٍ بديع ما وعاه القرآن بأكملهِ لحقيقةِ هؤلاءِ النفرِ من البشرِ (المؤمنون) الأمرُ بكلِ معروفٍ وهو حالةٌ ملازمةٌ تتجددُ بإيمانهم المستمر، والنهي عن كل منكرٍ من قولٍ وعملٍ، يتنافى مع ما تقرهُ الشريعة وترفضه العقيدة الإيمانية الصادقة، وقد جاءت

تلك المعاني للتعبيرين مؤطرةً بصيغِ مضارعة صفتها التكرار والذي يَمدّ ((البنية الصرفية للآية الكريمة بالقدرة على وصفِ حالةٍ دائمةٍ))[٥٧]، من خلالِ استحضار الوظيفة المنوطة بكلِ صنفٍ في ذهنِ السامع دوماً.

وقد أسهم التوازي التقابلي المتمثل بصيغِ المضارع في الأفعال (يأمرون – ينهون، يقيمون، يؤتون، يطيعون، يقبضون) في إضفاءِ حركةٍ دقيقةٍ دون مُزاحمةٍ لفظيةٍ أو تعارض لغوي لا يتعلق بالغرض الأساس.

هذه المقابلة أثبتت حضورها الفاعل في التجددِ والمزاولة والاستمرار وغايتها إبراز صفات السلب في الكفار، وصفات الإيجاب في المؤمنين، وبإظهار الفرق بينهما تبرز العقيدة السلوكية لكل فريق، التي على ضوئها يتحدد طبيعة مصيرهم.

٢) التقابل عبر توازي الأزمنة :

يجمعُ هذا النوع من التقابل (التوازي التقابلي الزمني)، والتقابل التوازي الفعلي، لما في الصيغ الفعلية من دلالات زمنية تعبيرية تؤكد المعنى وتبرزه بوضوحٍ، إلاَ أن وجه المفارقة بين النوعين يتجلّى بدقةٍ في أن ((الفعل لا يعملُ في الحقيقة إلاَ فيما يدلُ عليه لفظهُ))[٥٨]، وهذا يستلزم وجوبَ الاتصالِ بالفاعلِ لدلالةِ الفعلِ عليهِ في العمومِ والخصوص، زيادةً على أن الفعل في الأصلِ هو حركة الفاعل، وهذه الحركة لا تؤدي دورها بنفسها منفصلةً عن الفاعل بل تؤكد وجوبَ الاتصال[٥٩]، أما الزمنُ ((فهو حركةُ الفلك، فلا ارتباط بينهُ وبين حركةِ الفاعل إلاَ من جهةِ الاتفاقِ

---

[٥٦] التحرير والتنوير : ١٠ / ١٤٥.
[٥٧] تجليات الدلالة الإيحائية في الخطاب القرآني : ٢٤٠.
[٥٨] بدائع الفوائد : ٢ / ٥٥٦.
[٥٩] ينظر : المصدر السابق : ٢ / ٥٥٧.

والمصاحبة))[٦٠]، ولهذا فطن النحاة إلى أهميتهِ تحديدِ أصلِ الصيغةِ وزمنها، فالزمن بهذا الاعتبار لا يتحدّد بالفعلِ وحده، بل بقرائن سياقية معينة يقتضيها المقام ويستدعيها الحال، والتعبير عن الزمن في اللغةِ موكولٌ لصيغةِ الفعلِ والقرائنِ السابقةِ واللاحقةِ لهُ، بشرطِ إرتباط كل هذه الأمور بالسياق[٦١].

وقد أشار ابن الأثير صراحةً إلى التوازي التقابلي الزمني في قوله : ((إذا كانت الجملة من الكلام مُسْتَقْبَلَة قوبلت بمستقبلةٍ، وإن كانت ماضية قُوبلت بماضية، وربّما قُوبلت الماضيةِ بالمستقبلة، والمستقبلة بالماضية، إذا كانت إحداهما في معنى الأُخرى))[٦٢].

فالتعبير القرآني هنا يقتضي الإقرار بسلطة السياق، إذ إن هناك دلالات زمنية لا تُفهم إلاّ بترشيح السياق كقرينةٍ دالةٍ على زمن الحدث ومن بدائع المقابلات الزمنية: قوله تعالى: **{وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيّاً}** (مريم:١٥). نجدُ أن الدلالة الزمنية التقابلية في الأفعال الواردة (وُلِدَ) و(يموتُ) و(يُبعث) شكلت حلقةً زمنية متسلسلة متوازية، دمجت السنين الكونية بعلاقاتٍ منطقية أوجدها الله تعالى ابتداءً بزمن الولادةِ في الدنيا إلى زمن الممات في القبر، ثم إلى زمن البعث في الآخرة، وقد أنتج ذلك الترابط تضاداً تقابلياً بين مرحلتين زمنيتين هما :

١) **مرحلة الحياة المنتهية** :

وتشمل هذه المرحلة مرحلة الولادة في الدنيا المتمثلة بقوله تعالى : **{يَوْمَ وُلِدَ}** تتبعها مرحلة حياة البرزخ (القبر)، في قوله تعالى : **{يَوْمَ يَمُوتُ}**، ((فنسبة الدنيا إلى دار البرزخ كنسبةِ دارهِ في بطن أمهِ إلى الدنيا تقريباً وتمثيلاً، وزمن انقضاء الأولى يمثل بداية زمن الثانية الذي يمتد إلى الزمن الثالث وهو (زمن البعث) في قوله تعالى : **{يَوْمَ يُبْعَثُ}**، ولا نسبة لهذا اليوم لما قبلهِ من أطوار الحياة.

٢) **مرحلة الزمن المستمر** :

النقلات الزمنية في صيغ الأفعال الثلاثة الواردة برزت بشكل واضح من السياق فامتدت امتداداً واسعاً واختصرت الحدث بسنواتهِ، وارتبطت في الوقت ذاتهِ برابطٍ سببي منطقي، فالزمن في صيغة الفعل الماضي (وُلِدَ) دلَّ

---

[٦٠] بدائع الفوائد : ٢ / ٥٥٧.
[٦١] ينظر : الزمن في القرآن الكريم : ٦٠.
[٦٢] المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر : ٣ / ١٦٢.

على الإيجاد الأول من غير تدخل من بني البشر، في حين جاءت دلالة الزمن الفاني في صيغة الفعل المضارع (يموت)، أما الفعل (يُبعث) فدلالتهُ المستقبل المنتظر الذي تتطلع له النفوس دائماً، ولهذا أُشير إلى هذه الأزمان الثلاثة في حياة كُلّ مخلوقٍ ((يوم ولد، فيرى نفسه خارجاً مما كان فيه، ويوم يموت فيرى قوماً لم يكن عاينهم، ويوم يُبعث فيرى نفسه في محشرٍ عظيم))[٦٣]، وفي هذه المواطن الثلاثة التي هي فطانُ العطب ومواطنُ الوحشةِ، تُطلب السلامة، ويحرصُ عليها، لأنها مرحلة انتقالية من حالٍ إلى حالٍ تجعل الإنسان مُعرضاً للآفاتِ والمحنِ والبلاءِ.

وبهذا التقابل الزمني طويت ثلاث مراحل مهمة في حياة الإنسان بأحداثها وأزمنتها المتباعدة كشف عنها السياق دون الإشارةِ إلى ملامح وتفاصيل كل مرحلةٍ زمنية ويمكن تمثيلها بالمخطط الآتي :

تقابل

وُلِدَ ⟵ يموتُ

ومن أهم الملامح الإسلوبية البارزة في هذه الآيةِ ونظيرها في السورة نفسها في قوله تعالى على لسان سيدنا عيسى (عليه السلام) : **{وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً}** (مريم:٣٣).

الابتداءُ بلفظ (السلام) مُنكراً مرة ومُعرفاً أُخرى، وتقييدهِ بالأيام الثلاثة (الولادة، الممات، والبعث)، مع أن السلام مطلوبٌ في كل الأحوالِ والأوقاتِ والقول بذلك إنما جاء لحكمةٍ يقتضيها السياق، فالسلامُ طلبٌ ودعاء جاء في الموضوعين مصدرٌ مجردٌ للدلالةِ على الحدث الذي هو التحية، وحقيقةُ هذه اللفظةِ ((البراءةُ والخلاصُ والنجاة من الشرِّ والعيوبِ))[٦٤]، وفي هذا الفلك المعجمي تدور تصاريفها، وإنما جاءت مُنكرة في الآية الخامسة عشر من سورةِ مريم تحملث دلالة تسليم الله تعالى على يحيى (عليه السلام) فهو طلبٌ وإيجابٌ من نفسه جلَّ شأنه ليحيى (عليه السلام) بالسلامة، لأن ((الأصل في التحية أن تكون بلفظ النكرةِ))[٦٥]، فهي هنا ليست بحاجة إلى تعريف، إلاَّ أننا نجد أن تحية عيسى (عليه السلام) بُدئت بالمعرفةِ، وذلك تأكيداً على أن السلام إسمٌ من أسماء اللهِ بمعنى السلامةِ وعموم التحية، واستدعاءُ (ال) التعريف في

---

[٦٣] بدائع الفوائد : ٢ / ٦٥٤.
[٦٤] بدائع الفوائد : ٢ / ٥٩٩.
[٦٥] نظرات لغوية في القرآن الكريم : ٢٢٥.

لفظ السلام هُنا لفائدةٍ معنويةٍ تتضحُ في تأكيد قصدِ طلب السلامةِ والتبركِ والعموم، واللافت للنظر دقة التعبير القرآني في هذا الموطن فتعريف السلام لسيدنا عيسى وتنكير السلام لسيدنا يحيى (عليهما السلام) يوحي بعظم تحية يحيى لأنها من عند الله وبتأدب سيدنا عيسى مع ربه فقد جعل سلامه أدنى من سلام الله على يحيى لأنه هو المسلم على نفسه، أما تقييد لفظ السلام في قصتي يحيى والمسيح (صلوات الله عليهما) بالأزمان الثلاثة، فقد جاء لعلةٍ بيانِ حصول السلامةِ في هذه المراحلِ وما بينها ((من الشرّ، والشيطان، والعقوبة، يقتضي سلامتهُ من الأهوالِ، ودار الفجار، وأنه من أهلِ دار السلام))[٦٦]، وبذلك شكلت تلك الصيغ رابطاً دلالياً تقابلياً أسهم في خلقِ متوازيات زمنية اختزلت أحداثاً ومشاهدَ يجري فهمام من السياق العام وفقاً للعلاقات الدلالية التي اقترنت بها، فأوضحت بذلك الفروق البلاغية واللغوية للمفرداتِ، ضمن حدود الرقعةِ المعجمية الخاصة بها وإسناد دلالاتها تبعاً لذلك.

٣) التقابل عبر توازي الأحداث :

للحدثِ في التعبير القرآني دلالات سياقية متواصلة ومتداخلة تتناسب مع الزمنِ الحركي للصيغة التي يرد فيها، فيشكل بذلك محور اهتمام أساسي قائم على الترتيب ليُفصح عن مشاهد تقابلية إعجازية، تتناولُ القصة بريشةِ التصوير المبدعة، فتظهرُ جميعُ المواقف والأحداثِ المعروضةِ مُطلقة متكاملة، فتستحيلُ بذلك حادثاً يقعُ ومشهداً يجري وقصة تُرى، تهدف إلى الكشفِ عن مغزىً أو عبرة أو موعظة يتضمنها السياق، مما يؤكد الارتباط التفاعلي بين مجريات الحدثِ والزمن الذي تقع فيه بدلالة القرائن السياقية اللفظية والمعنوية، فقد يخضع الحدث في القصص القرآني للتعاقب الزمني في استعراض المشاهدِ فيتخلق نوعاً من التقابل التصويري ((بما فيه من تقديمٍ وتأخيرٍ ومفاجئةٍ وسرعةٍ أوقعُ في الحس من الجهةِ الدينية وهو كذلك أشد أحياءً للمنظر من الجهةِ الفنية وهما متوافقات في تصوير القرآن))[٦٧]، مما يحفز المشاهد القرآنية على قطع مسارٍ زمنيٍ تتواشج فيه الأحداث فتشكل نسيجاً يُبنى فيه اللاحق على المتقدم في نسقٍ بنائي فني متكامل.

ومن أروع مشاهد التصوير بالتقابل ما جاء في وصف أهل النارِ في قوله تعالى : **{وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ**

---

[٦٦] تفسير الكريم الرحيم في تفسير كلام المنّان : ٤٩٣.
[٦٧] مشاهد القيامة في القرآن : ٦٩.

أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ} (الزمر:٧١).

ونظيرتها في أهل الجنة في قوله تعالى : **{وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ}** (الزمر:٧٣).

يكشف السياق القرآني في الآيتين عن مشهدين غيبين عميقين غابت دقائقهما وخفيت ملامحهما عن ذهن المتلقي لقصور حواسهِ المادية عن الإدراك، إذا جاء التركيز والاهتمام منصباً على المفعولِ به وهو (الذين كفروا) و(الذين آمنوا) لتصدير التعبيرين بصيغةِ الفعلِ المبني للمجهول (سِيق) الذي يتناسبُ مع دلالة الوصول إلى الحركةِ المجهولةِ وتصويرها في زمنٍ لم يُدرك بعد، فضلاً عن إبراز الحالة النفسية الانفعالية المصاحبة للحدث مما يُتيح إمكانية جعل ((بعض العناصر (الغائبة) في مشاهد القيامة شديدة الحضور في ذهن المتلقي إلى درجةٍ يمكننا أن نعدّها عناصر (حاضرة)))[٦٨]، فغيابُ عنصر الفاعلِ إجراءٌ أسلوبي حقق عدولاً في البناء النحوي بمقتضى السياق التقابلي الذي تبرزه مادة الفعلِ المتكررةِ، علماً أن حذفه جاء لدواعٍ يقتضيها المقام من العلم بهِ أو تعظيم شأنهِ، تنزيهاً وصيانةً وحفظاً، أو للاختصار أو التنبيهِ على أن الزمان يتقاصر على الإتيان بالمحذوفِ أو أن الاشتغال بذكرهِ يفضي إلى تفويت المهم[٦٩]، ولا سيّما أنه معلوم من السياق واضحٌ في الأذهان، وهذا ما أكدتهُ الدكتورة عائشة عبد الرحمن في رؤيتها البلاغية النابعة من أن القرآن الكريم كثيراً ما يستغني عن الفاعلِ ببناء الفعل للمجهولِ، أو بالاسناد المجازي، أو بالمطاوعة، ولا سيّما في عرضِ المشاهدِ المسوقةِ لتصوير القيامةِ وأهوالها، وقد حاولت الدكتورة توجيه هذه النظرة بيانياً بقوله : ((فبناء الفعل للمجهول فيه تركيز الاهتمام على الحدثِ بصرفِ النظرِ عن مُحدثهِ))[٧٠]، وهذا يستلزم مراعاة القصد في اللفظ والوفاء بالمعنى على أتمَّ وأكمل وجه، فالتعبير القرآني يستثمرُ أقل الألفاظِ في أكثر المعاني دلالةً على المعنى المقصود.

---

[٦٨] التصوير المجازي – أنماطه ودلالاته : ١٧١.
[٦٩] ينظر : الإتقان في علوم القرآن : ٣ / ١٧٠.
[٧٠] الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق : ٢٥٥.

إن تلقي كينونة الحدث التقابلي بمعناه العميق، يدفع بالنظرِ إلى التدبر والتأملِ في ما انطوى عليه المشهد من أحداثٍ زمنية متتابعةٍ جارية مع السياقِ في انتظامٍ وتوافق لفظي ومعنوي، حين تبدأ حرة السوقِ الجماعي باتجاهين متوازيين مختلفين تجسدان أطراف التقابل :

الطرف الأول ⟵ مُهانين مَطْرُودِين مُعَنَّفِين / إلى دار الذلة
أهل النار سِيقَ

الطرف الثاني ⟵ رُكبَاناً مُسرعين مُكرّمين / إلى دار الكرامة
أهل الجنة سِيقَ

فشتان بين السِوْقَين، فقد أضفى هذا التتابع في نسق تقابل الأحداث، روعةً فنية وبلاغة إعجازية تكمنُ في إدخالِ (واو الجمع) على جواب ((حتى إذا)) في آية أهل الجنة، ونزعها منه في آية أهل النار، وفي هذا الموضع سرٌّ بلاغي اختلف علماء النحو والتفسير في تعليلهِ[٧١]، إلاَّ أن أقربُ الأقوال إلى الحقيقة والانسجام مع السياق القرآني ما ذهب إليه البصريون في إثبات أن الواو هُنا ليست (واو الثمانية)[٧٢] ولا (واو) الزيادة، لأن القول بزيادة الواو أمرٌ ((لا يثبتهُ البصريون، لكنهُ عندنا على حذفِ الجوابِ، أي حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها كذا وكذا صُدقوا وعدهم، وطابت نفوسهم، ونحو ذلك مما يُقال في مثل هذا[٧٣]، وهذا يؤكد أن مجيء حرف (الواو)

---

[٧١] ذهب شيخ الكوفيين (الفرَّاء ت ٢٠٧هـ) إلى أن العربَ تُدخل الواو في جواب ((لما))، و((حتى إذا)) وتلقيها، فمن ذلك قوله الله : ((حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا)) وفي موضع آخر : ((وفُتحت))، وكُلٌّ صواب، وعلى هذا القول جمهور الكوفيين، معاني القرآن : ٦٢٣.
أما شيخ البصريين (سيبويه) فقال : ((أن العرب قد تترك في مثل هذا الخبر الجواب في كلامهم، لعلم المجيز لأي شيء وضع هذا الكلام))، مُنكراً من عدّ حرف (الواو) في قوله تعالى ((وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا))، زائداً، وأن الاستدلال بالقياس على نظيراتها باطلٌ، لما في ذلك من إهمال السياق للمعنى ، ينظر : الكتاب : ٣ / ١٠٣.

[٧٢] قيل سميت (واو الثمانية)، لأن العرب جرت على عادة في العدِّ فلا تعطف الثمانية إلاَّ بالواو، فتقول : واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة، ستة، سبعة، وثمانية، وبناءً على ذلك، فلما كانت أبواب الجنة ثمانية وأبواب النار سبعة، أُدخلت الواو في آية أهل الجنة، ونُزعت من آية أهل النار، إلاَ أن هذا القول ضعف من قبل الكثيرين، فلا دليل علسه، ولا تعرفهُ العرب، ولا أئمة العربية، وإنما هو أستنباطُ بعض المناظرين، ينظر : بدائع الفوائد : ٩١٥/٣.

[٧٣] هذا القول لأبن جني حين أيد رأي البصريين في أن الواو شأنها شأن جميع الحروف، ومجيئها دون معناها يوجب اللبس، لذا لا يصح القول بزيادتها، الخصائص : ٢ / ٤٦٤.

لمعنى مقصود يقتضيهِ السياق، فالتعبير القرآني نظامٌ متماسكٌ متكامل ليس فيه زيادة ولا حشو، مما يعني أن دلالة (الواو) في قولهِ تعالى : **{وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا}**، هو الحال[٧٤]، أي : أن أبوابَ الجنةِ مُفتّحةٌ قبل مجيء المؤمنين إليها، حتى إذا جاؤها وهي مفتّحة الأبواب، فهذا حالها، لأن ((العادة أيضاً أن يُكْرَم المنعمون بفتح الأبوابِ قبل وصولهم إليها))[٧٥]، بدليل قوله تعال : **{هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الأَبْوَابُ}** (صّ: ٤٩ - ٥٠)، فدّل وجود (الواو) على حذف جواب الشرطِ (إذا)، لِما في الحذفِ من ((دلالةٍ على أنه شيءٌ لا يحيط به الوصف أو لتذهب نفس السامع كل مذهبٍ ممكن))[٧٦]، فاللغة نفسها عاجزة عن وصفِ الجنةِ، لقول الله عز وجلّ في الحديث القدسي عن أبي هريرة (رضي الله عنه) : ((أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلبِ بشر))[٧٧]، وقد أثبت هذا الرأي الدكتور فاضل صالح السامرائي في تعليلهِ لحذفِ جواب الشرط هنا، مؤكداً أن في ذلك إشارة خفية إلى أن اللغة نفسها لا يمكنها وصف ما في الجنة من نعيم[٧٨].

أما مجيء الجواب في آية الكافرين غير مقترن بالواو فللدلالة على أن النارَ مُغلّقة مؤصدة في الأصل، حتى تستعر وتشتد حرارتها[٧٩]، لا تُفتح أبوابها إلاّ بعد مجيء أهلها الذين طال وقوفهم وانتظارهم، وهذا أنكى لهم، ودليل ذلك قوله تعالى : **{إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ}** (الهمزة: ٨-٩)، ((لأن من العادة أن يُهان المعذبون بالسجون، فَتُغْلَقَ حتى يأتوها))[٨٠].

مما سَبق يتأكد أن ذكر الواو في آيةِ أهل الجنةِ أدى دلالة مقصودة لا يتم المعنى بدونها، وبذلك ناسب حذفها في موضع أهل النارِ للغرضِ نفسهِ، فكل من الذكرِ والحذفِ جاء مُناسباً للسياق الواردِ دفيهِ، مما يؤكد وجوب النفي بالقولِ أنها زائدة، كما ناسبت لفظةُ (السوق) الحديثين، لأن المشهد تصويرٌ لحركةٍ جماعية (زُمراً)، لإظهار شدةِ هول هذا الموقفِ على الملأ.

---

[٧٤] ينظر : البرهان في علوم القرآن : ٣ / ١٨٩.
[٧٥] نظرات لغوية في القرآن الكريم : ٢٥٧.
[٧٦] الإيضاح : ١ / ١٨٨.
[٧٧] حديث صحيح رواه البخاري : ٦ / ٢١، ومسلم : ٣ / ٢١٧٤.
[٧٨] ينظر : لمسات بيانية في نصوص من التنزيل : ١ / ١١٣.
[٧٩] ينظر : نظرات لغوية في القرآن الكريم : ٢٥٦.
[٨٠] المصدر السابق : ٢٥٦ – ٢٥٧.

فالسياقُ هو المعيار لتحديد قيمة الكلمة وأحوالِ ورودها في التركيبِ وفي ضوءِ ذلك تبرز الوقفات الإعجازية للتعبير القرآني، لما تضفيهِ رابطة التقابل من قوةٍ وتناسب لفظي ومعنوي لتُشكل أساساً للفصل بين المعاني، فالقضية إذاً ليست جمع بين متضادين وحسب، بل قضية بناء دلالي تبرز فيه المعاني وتنجلي في صورةٍ تعبيرية تكون أقرب رسوخاً في الذهن وأمكنُ وصولاً إلى المعنى الحقيقي المطلوب، وبهذا نتأكد أن أسلوب المقابلة مبنيٌ على التنظيم للمعاني المتوافقة مع ما يُنظارها من المعاني الأخر المُضادة لها.

وبعد هذا العرض يتبين لنا جلياً أثر التقابُل الواضح في ظهور المعنى في التعبير القرآني على طوال مسار الآيات والسور في الكتاب الحكيم.

المصادر والمراجع :

١- الإتقان في علوم القرآن : جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ)، المكتبة الثقافية، بيروت، ١٩٧٣م.

٢- أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية : د. حسن طبل، دار الفكر العربي، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م، القاهرة، ١٩٩٨م.

٣- الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق : د. عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)، دار المعارف بمصر، القاهرة، ط١، ١٣٩١هـ - ١٩٧١م.

٤- الإيضاح في علوم البلاغة : الخطيب القزويني (ت ٧٣٩هـ)، ت : محمد عبد المنعم الخفاجي، ط٣، المكتبة الأزهرية، ١٩٩٣م.

٥- بدائع الفوائد : تأليف الإمام أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية (٦٩١-٧٥١)، تح : علي بن محمد العمران، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٢٥هـ.

٦- بديع القرآن : لابن أبي الأصبع المصري (ت ٦٥٤هـ)، تحقيق د. حفني محمد شرف، مطبعة الرسالة، القاهرة، ط١، ١٩٥٧م.

٧- البديع دارسة في البنية والدلالية، د. عزة محمد جدوع، ط١، ١٣٢٩هـ - ٢٠٠٨م، مكتبة الرشد، المملكة العربية السعودية، الرياض.

٨- البرهان في علوم القرآن : بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي (ت ٧٩٤هـ)، تح : محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، ١٣٧٦هـ - ١٩٥٧م، دار إحياء الكتب العربية، بيروت – لبنان.

٩- تاج العروس من جواهر القاموس : السيد محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، تحقيق : عبد الستار أحمد فرّاج، ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م، طبعة الكويت.
١٠- تجليات الدلالة الإيحائية في الخطاب القرآني في ضوء اللسانيات المعاصرة سورة التوبة إنموذجاً، د. فخرية غريب قادر، جامعة صلاح الدين، كليات اللغات أربيل، عالم الكتب الحديث، أربد – الأردن، ٢٠١١، ط١.
١١- التصوير الفني في القرآن : سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، د.ت.
١٢- التصوير المجازي – أنماطه ودلالاته في مشاهد القيامة في القرآن، د. أياد عبد الودود عثمان الحمداني، ط١، بغداد، ٢٠٠٤م، دار الشؤون الثقافية العامة.
١٣- التفسير البياني للقرآن الكريم : د. عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٩٨٤م.
١٤- تفسير التحرير والتنوير، المعروف بتفسير ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (١٣٩٣هـ)، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت – لبنان، ط١، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.
١٥- تفسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان : تأليف العلامة الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تح : عبد الرحمن بن معلاّ اللوايحق، ط١، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م، بيروت – لبنان.
١٦- التقابل الجمالي في النص القرآني – دراسة جمالية فكرية وإسلوبية، أ.د.حسين جمعة، منشورات دار النمير للطباعة والنشر، ط١، ٢٠٠٥م.
١٧- خزانة الأدب وغاية الأرب : لأبي بكر تقي الدين الحموي، (ت ٨٢٧هـ)، شرح عصاك شعيتو، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط٢، ١٩٩١م.
١٨- الخصائص صنعة أبي الفتح عثمان بن جني، تحقيق محمد علي النجار، ط٤، دار الشؤون الثقافية العامة، العراق – بغداد.
١٩- دراسات منهجية في علم البديع : د. الشحات محمد أبو ستيت، ط١، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.
٢٠- دقائق الفروق اللغوية في البيان القرآني : د. محمد ياس خضر الدوري، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط١، ٢٠٠٧م – ١٤٢٧هـ.

٢١- الزمن في القرآن الكريم – دراسة دلالية للأفعال الواردة فيه، د.بكري عبد الكريم، دار الكتاب الحديث، ١٤٢١هـ-٢٠٠١م.
٢٢- صحيح الإمام مسلم : تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي.
٢٣- صحيح البخاري : محمد بن إسماعيل البخاري (ت ٢٥٦هـ)، ت : مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، ١٩٨٧م.
٢٤- فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور، د. رجاء عيد، ط٢، منشأة المعارف، القاهرة.
٢٥- فن البديع : د. عبد القادر حسين، دار الشروق، ط١، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
٢٦- في ظلال القرآن : سيد قطب، ط١، ١٩٧٢، دار الشروق، القاهرة، مصر.
٢٧- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل : أبو القاسم الزمخشري، ت٥٣٨هـ)، شرحه وضبطه : يوسف الحمادي، مكتبة مصر.
٢٨- لسان العرب : أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور (ت ٧١١هـ)، دار صادر، بيروت، (د.ت).
٢٩- لمسات بيانية في نصوص من التنزيل : د. فاضل صالح السامرائي، دار عمار لنشر، ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٣م، بيروت – لبنان.
٣٠- معاني القرآن : أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء (ت ٢٠٧هـ)، عالم الكتب، بيروت، ط٢، ١٩٨٠م.
٣١- المفردات في غريب القرآن : الراغب الأصفهاني (٥٠٢هـ)، تحقيق وضبط محمد خليل عيتاني، دار المعرفة، بيروت – لبنان، ط٣، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.
٣٢- نظرات لغوية في القرآن الكريم : أ.د. صالح بن حسين العايد، دار أشبيليا للنشر والتوزيع، ط٢، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م، المملكة العربية السعودية، الرياض.